ريتشارد دافيد بريشت

عن الواجِب

تأملات

جولدمان

ريتشارد دافيد بريشت
عن الواجب

ج .جولدمان
معايشة القراءة

جولدمان

النسخة الأصلية

إذا كان هذا المنشور يحتوي على روابط لمواقع طرف ثالث، فإننا لا نتحمل أي مسؤولية عن محتواها، لأننا لا نعتمدها على أنها ملكنا، ولكننا نشير فقط إلى حالتها في وقت النشر الأول.

الطبعة الرابعة
حقوق النشر © 2021
دار نشر فيلهلم جولدمان، ميونخ،
في مجموعة بينجوين راندم هاوس للنشر Penguin Random House
شارع نويماركر 28، 81673 ميونخ، ألمانيا
تصميم الغلاف: وكالة إعلانات UNO، ميونيخ
صورة الغالف: ®FinePic، Munich
المحرر: ريجينا كارستنزن
التنضيد: Buch-Werkstatt GmbH، Bad Aibling
الطباعة والتجليد: فريدريش بوستيت، ريجنسبورج
طبع في ألمانيا
إنتاج: kw JT
الرقم الدولي (ردمك) 978-3-442-31639-7
www.goldmann-verlag.de

تحملوا بعضكم البعض وسامحوا بعضكم بعضًا!
كولوسي 3:13

.1

.

أصبحت ألمانيا في عامي 2020 و2021 جزءًا من حدث غير عادي ومُزعج ومثير للإعجاب من نواح كثيرة. تُعد جائحة كوفيد 19، التي أدت إلى وفاة أكثر من مليوني شخص في جميع أنحاء العالم بسبب الفيروس، أكبر جائحة عالمية منذ خمسين عامًا على الأقل. بتعبير أدق منذ 1970/1968، عندما تسببت إنفلونزا هونج كونج في مقتل ما بين مليون ومليوني شخص، من بينهم 40.000 إلى 50.000 شخص تقريبًا في جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية.

هذا الحدث مثير للقلق لأن الغالبية العظمى من الناس في ألمانيا لم يتعرضوا لجائحة من قبل، أو كما هو الحال مع إنفلونزا هونج كونج أو الإنفلونزا الآسيوية في 1958/1957، لم يُدركوا ذلك بوعي، فكلاهما لم يكن معروفًا بشكل عام ولم يُمثّل حدثًا إعلاميًا. يبدو أن الأوبئة والأمراض المعدية الخطيرة كانت دائمًا بعيدة، وتؤثر على حياة الآخرين، أو كما في حالة "وباء الشهوة" الإيدز، الذي توفي بسببه خمسة وثلاثون مليون شخص على مستوى العالم حتى الآن، يمكن تجنبها بالكامل تقريبًا من خلال الحيطة والحذر. بالنظر إلى بُعد وخفاء الأخطار الأخرى عن الأنظار ونسيان وسائل الإعلام، تظهر جائحة كوفيد 19 اليوم كحدث فريد من نوعه، مُخيف ومربك، في مجتمع مثل ألمانيا، يتسم تبعًا للمقاييس العالمية التاريخية، بالرفاهة والسلم نسبيًا.

لا يمكن تفسير ما حدث ولا يمكن تضمينه في إطار مناسب يجعلنا ننظر إلى أمرٍ غير عادي على أنه عادي. إن فكرة الرب المُعاقب والمتسبب في انتقام عالمي بسبب الجرائم المرتكبة، والذي غالبًا ما كان يتولى في التاريخ دور الجاني حسن النية، فشلت في القرن الحادي والعشرين العلماني. كما أن الكنيسة التي أعلنت قدوم يوم القيامة أكثر من مرة في تاريخها، والذي لا يمكن تأجيل أي شيء فيه، ظلت الآن صامتة بخضوع. لا تؤدي التفسيرات الميتافيزيقية وأوهام الانتقام أيضًا إلى شيء، حيث قام علماء البيئة القلقون في مهمة رسولية بإعلان أن فيروس كورونا جاء للانتقام من أجل البيئة المنكوبة بسبب الاستغلال العالمي القاسي للطبيعة. صحيح أن الناس يتسببون اليوم لبيئتهم المادية والبيولوجية في جروح أكبر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية – إلا أن الطبيعة لن تخلق نوعًا جديدًا من الفيروسات لهذا السبب، بل بالأحرى يحدث انتقال وانتشار المرض بشكل أسرع في عصرٍ تتضاءل فيه المساحات الطبيعية وتزداد الكثافة السكانية والانتقال والشحن الجوي العالمي. لكن لا يزال الناس هم من يتسببون في ذلك، وليس المحيط الحيوي الانتقامي أو عالم الحيوان. كورونا ليس هو الرد على انتهاك الحقوق أو تهالك النظام القديم، ومن الأفضل ألا يسيء حُماة البيئة

فهم أنفسهم على أنهم "علماء ميتافيزيقا التشفير". لن ينتقم كوفيد 19 من أي سوء تصرف قام به البشر. لأن ممن أو من ماذا انتقمت إنفلونزا هونج كونج، أو الإنفلونزا الآسيوية، أو الإنفلونزا الإسبانية، أو الطاعون، أو الكوليرا، أو مرض التعرق الإنجليزي، أو الإيبولا؟ كيف يمكن لمثل هذا الحدث المحزن، الذي كلف عشرات الآلاف من الأرواح في ألمانيا أيضًا، أن يكون مثيرًا للإعجاب من بعض النواحي؟ ربما يكون أمرا مثيرا للإعجاب، أو بالأحرى مطمئنا، لأن دولة الوقاية والرفاهة الحديثة في ألمانيا، على عكس الجوائح السابقة، تحاول باستمرار إعادة تقييم الوضع، بالتنسيق مع مصالح مواطنيها، لاحتواء حجم الكارثة وتقليص عدد ضحايا الفيروس. ازدادت الثقة بالدولة الديمقراطية الليبرالية في أوقات الجائحة - ومعها زادت شعبية السياسيين المسؤولين. ومع ذلك، فإن الأمر المثير للإعجاب بشكل خاص هو أن الغالبية العظمى من المواطنين الألمان، وهو ما تم تأكيده في العديد من الدراسات الاستقصائية، لا يحمون أنفسهم من العدوى فحسب، بل يظهرون أيضًا تضامنهم مع الضعفاء والمعرضين بشكل خاص لخطر الفيروس. إنهم يلتزمون بتدابير الدولة لحماية الصحة، لأنهم يعتبرونها عمومًا صحيحة، بغض النظر عن رأيهم في هذا القرار أو ذاك.

تظهر الشخصية الحقيقية في الأوقات الاستثنائية، أوقات غياب المعيار الثقافي المعتاد، وانهيار إيقاع حياتنا، حيث يتم الإخلال بشكل حساس بسلاسة الحياة اليومية والآلية التي نتكيف بها مع بيئتنا والعالم المحيط. كما تظهر بشكل واضح مواقفنا واتجاهاتنا السلوكية وحساسياتنا، والتي أصبحت الآن أكثر وضوحًا مما كانت عليه في أثناء الروتين اليومي. تُظهر أحداث عامي 2020 و2021 بوضوح كيف تسير الأمور في بلدنا. يجد علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعيون وعلماء النفس الفردي حاليًا الكثير من العمل، ويقوم متنبئو وسائل الإعلام بسرعة، وأحيانًا بسرعة أكثر مما يجب، بتشخيص التغيرات في العقلية والتغيرات الهيكلية، والمعايير الاجتماعية، والأمور الطبيعية الجديدة، أو حتى يتنبؤون ببداية عصر جديد تمامًا.

بصفتي فيلسوفًا مهتمًا بالسياسة، فإن شيئًا واحدًا يشغلني بالدرجة الأولى: كيف يتم اليوم فهم الحقوق والالتزامات، التي كانت دائمًا موضوعًا رئيسيًا في الفلسفة؟ كيف يرى الناس أنفسهم بصفتهم مواطنين؟ ما رأيهم فيما هو واجب عليهم، وماذا يعتبرون أنه واجبهم المدني؟ كيف يتشكل مجال التوتر بين الواجب والقانون، والخطر والتدابير، والحصافة والجنون، والحياة والموت؟ وماذا تخبرنا الأزمة عن حالة المجتمع في هذا الصدد؟

إن مفهوم "الواجب"، الذي عفا عليه الزمن وأصبح أحيانًا يشبه كلمة من زمن آخر، من القرن التاسع عشر البرجوازي، وهو الشيء الذي ابتعدت عنه المجتمعات الحديثة أكثر

فأكثر، لا يُعد في القرن الحادي والعشرين شيئًا من الماضي. لا تزال هناك أسباب وجيهة لعدم السماح باختصاره لالتزامات الضرائب والدفع والائتمان، أو التهديد الخفي من قِبل القانون الجنائي، كما يعتقد البعض –فيما يبدو. إن كلمة "واجب"، في أصلها الألماني القديم والوسيط، تعني الرعاية والحضانة والمشاركة والخدمة للمجتمع، وكانت تدل على قيمة مجتمعية عظيمة. وكما يقول فريدريش نيتشه، فإن الواجب هو "حق الآخرين علينا". وفكرة التجاوز التام لأي التزام يخرج عن حدود الضرائب، والشراء، والتصرف بطريقة لا توجب العقاب، والتي تقدم نفسها على أنها فكرة "ليبرالية" أو "تحررية"، هي سوء فهم ذاتي غريب ومزعج أحيانًا ممن يمثلونها في العالم.

إن وجود واجبات والتزام تجاه الآخرين ليس من بقايا عصر ما قبل الحداثة؛ كما أنه ليس شرًا شخصيًا واجتماعيًا بأي حال من الأحوال أن نطالب بحقوقنا، ولكن أيضًا أن نعترف بحق الآخرين علينا في أن نتصرف بشكل مناسب تجاههم. الواجبات ليست أشياء تحملها معك، لكنك تحملها في داخلك كجزء من موقف؛ موقف تجاه الآخرين وأحيانًا تجاه مؤسسة تفرض عليك واجبات، ولكنها قبل كل شيء موقف تجاه الذات. بالنسبة لما يتعلق بالواجب، تبدو أزمة كورونا كأنها عدسة مُكبرة. إنها تخلق صورة افتراضية واضحة للمواقف التي يتبناها الناس في مجتمعنا اليوم في مواجهة عدم الأمان وعدم اليقين. بسبب الضعف البيولوجي والسياق الطبي المصيري الذي نقف فيه مع الآخرين، يصبح سلوكنا وجوديًا، كما وصفه ألبير كامو في رواية "الطاعون". لم يعد أي موقف نتخذه عند التعامل مع الفيروس مسألة خاصة بحتة. إنها ليست فقط جزءًا من أخلاقيات الحياة، ولكنها أيضًا جزء من التعايش - وفي هذا الصدد فهي مسألة واجب والتزام.

بالنسبة لمعظم الأشخاص في ألمانيا الذين لم يشهدوا الحرب العالمية الثانية، فإن هذا الوضع الاستثنائي جديد تمامًا. ألم نحصن أنفسنا ضد معظم مظاهر قسوة الطبيعة من خلال التدابير الصحية والرفاهة؟ ألم نتجنب بداية الموت الجماعي بفترة سلام طويلة؟ أليس الموت، حتى لو تسلل إلى حياتنا من خلال ظواهر عامة مثل أمراض القلب والأوعية الدموية أو السرطان، يعد مسألة خاصة؛ لأن مرضي مثلا لا يُعرض الآخرين للخطر؟ إن مجتمعًا مثل مجتمعنا، الذي تم تكييفه لحل "المشاكل" من خلال التكنولوجيا، لا يجبر مواطنيه عمومًا على إجراء تغييرات جماعية في السلوك - ولا حتى فيما يتعلق بمسألة الحياة والموت. فقط الالتزام بارتداء أحزمة الأمان في سياراتنا وحظر التدخين العام ما زالا في ذاكرتنا، ولكن بشكل بسيط، بوصفها إجراءات للتثقيف الصحي. من الطبيعي الآن أن تكون صرخة التنبيه السابقة قد تلاشت منذ فترة طويلة ولا تكاد تذكر.

في ظل هذه الخلفية، فإن الإجراءات التي حددتها الدولة لتغيير السلوك في أزمة كوفيد 19 كان لها تأثير شبه وحشي ومقلق على بعض الأشخاص. لا تُجبرك الدولة الديمقراطية الليبرالية عمومًا على الحفاظ على اللياقة المناسبة في التصرف والمسافة المحسوبة من الآخرين، ولكنها تترك الأمر لكل فرد ليكون تصرفه لائقًا بصورة أكثر أو أقل. هل من حق الدولة حتى أن تتدخل في الحياة الخاصة لمواطنيها بهذه الطريقة؟ هل من حقها أن تُطالب بالفضيلة وتُذكر بأخلاقيات التعايش؟

تولِّد المُطالبات السلوكية معارضةً، حتى عند الأطفال وكذلك عند البالغين، الذين تعتمد صورتهم الذاتية على تحديد الشيء الصحيح لأنفسهم بأنفسهم دائمًا. لا عجب أن نداءات الدولة للتضامن يمكن ليس فقط أن يُقابلها تفهُّم من الأغلبية، ولكن أيضًا معارضة من الأقلية عالية الصوت. أولئك الذين يطالبون بالتضامن مع الضعفاء يمكنهم أيضًا توقع وجود قدر لا بأس به من رفض ذلك التضامن.

هناك عديد من الدوافع، حقيقية ومستقبلية. صحيح أنه ليس من السهل الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالمُفاضلات وأسئلة التناسب. ما مقدار المعاناة التي تسببها العواقب الاقتصادية؟ ما الآثار الجانبية التي يجب مراعاتها؟

وبالطبع، للأشخاص في دور المسنين الحق في أن يقرروا بأنفسهم؛ فربما كانوا يفضلون الموت بسبب كورونا على الموت من الوحدة. لكنهم ليسوا وحدهم في منزلهم، وبالتالي فإنهم يخاطرون بقرارهم بحياة العديد من الآخرين. الشكوك شيء، والانهيار التام للتضامن شيء آخر. أي حجة قوية يمكن أن تُبرر التحلل من الالتزام؟ لأنه مهما كانت تفاصيل دوافع القرار، فإن الخط الفاصل في قضية كوفيد 19 سيكون في النهاية بين الحياة والموت: إنقاذ أكبر قدر ممكن من الحياة في مقابل الاختيار المُنفلت، وترك أولئك المعرضين للخطر بشكل خاص يموتون بسبب الإهمال.

في حين أن معظم الناس يظهرون تفهمًا للوضع، ولديهم فهم عام للعديد من التدابير (حتى لو لم تكن ضرورية للجميع)، ويراعون الآخرين، فإن عدم الفهم، والافتقار إلى التعاطف، والافتقار إلى المراعاة، يدفع بالرافضين تمامًا إلى ظُلمات التفسيرات البديلة تمامًا. من المؤكد أن المعارضين الصامتين أكثر من أولئك الذين يتذمرون بشكل عام من كل إجراء حكومي. من ناحية أخرى، فإن المجموعة الأصغر من عاليّ الصوت تكون أكثر لفتًا للانتباه: الواجب ينادي – ونحن نعترض! ليس سلوكي هو الذي يجب أن يتغير، بل الواقع. أي يتم تصنيف

التحول في المنظور وفقًا لمدى ضرورة تغيير الواقع، بحيث يمكن للمرء أن يعيش في سلام مع نفسه ومع عناده.

نظرًا لأنه لا يكاد أي شخص يعتبر نفسه أنانيًا أو يفتقر إلى التضامن، يجب أن تُنسب الأنانية وخرق التضامن إلى الطرف الآخر. يعتبر الشخص الآخرين أكثر شيطانية كلما تحكم فيه شيطانه الذاتي أكثر. إذا استثنى المرء تلك المجموعة الصغيرة من المتظاهرين الذين يهتفون بأنهم "يفضلون الموت بكورونا على التعايش مع الإجراءات!"، وإذا فضّل ترك الضعفاء يموتون، فسيتوجب علينا إذًا التشكيك فيما يقوله لنا معظم علماء الأوبئة، وأن نستبدل الواقع بواقع آخر. إن تسمية أوجه عدم اليقين والتناقضات الحقيقية الموجودة في المعرفة حول الفيروس وأصله وتأثيره وانتقاله، تشكل بالنسبة لهؤلاء نقطة انطلاق لتطورهم النفسي الذي يبحث عمّا يدعمه في الخيال، أي أنهم يبحثون عمّا يدعم الشك لديهم.

يستمتع بذلك صانعو الرأي ممن لديهم دوافع متنوعة للغاية. إن لعب دور المحقق واكتشاف التناقضات أمر بريء في حد ذاته، ويمكن فهمه على أنه محاولة للتنوير. ولكن، إذا أدى هذا الشك المُتشعِّب في تفاصيله إلى اتهامات، وولّد حالة عامة من انعدام الثقة، ونشر الشائعات، فعندئذ يتحول الأمر من التنوير إلى الإنكار. يقبل جمهور هؤلاء المؤثرين المُمتن الاختيار بين التفسيرات المقدمة حول الجائحة، فبعضهم يقبل التفسيرات الأكثر مرونة وآخرون التفسيرات الأصعب. في أبسط التفسيرات يقولون إن كوفيد 19 هو مجرد إنفلونزا، كما لو أن تسمية كلمة "إنفلونزا" هي بالفعل بمثابة العصى التي ستدفع الشيطان بعيدًا إلى الأبد.

على الرغم من وجود الكثير من أوجه التشابه بين فيروسات الإنفلونزا وكوفيد 19، والتي لا تجعل المقارنة زائفة، إلا أن تلك الفيروسات لا تزال غير متماثلة. يبدو أن كلمة "إنفلونزا" تقدم للأشخاص، الذين لا يجيدون التعامل مع مواقف عدم اليقين، ملجأ مؤقتًا، ولكن لا يفوتهم وضع علامات الاستفهام حول سبب عدم اعتبار الدولة الإنفلونزا على أنها "مجرد إنفلونزا".